المحاضرة الثّامنة: التّأليف في النّحو التّعليمي:

تمهيد

نَشَأَ عِلْمُ النَّحْو اَلْعَرَبِي نشأة عربية خالصة ، لَعوامل دينيّة؛ و سياسية و تاريخية معروفة، ومرّ بمراحل مختلفة: نشأة و تطوّرا و نضجا فاكتمالا، على يد البصريين و الكوفيين و البغداديين و غيرهم...

وَمع تقادم الأزمان كثرت المؤلفات النحويّة، وَظَهَرَ فيها اَلتَّطويلُ والتَّعقيدُ، وَاَلْفَلْسَفَةُ وَاَلْمَنْطِقُ وَعِلْمُ اَلْكَلَامِ، وَدَبَّت اَلْخِلافاتُ فِي اَلآرَاءِ بَيْنَ أَصْحَابِهَا، وَظَهَرَت اَلْمَدَارِسُ اَلنَّحْوِيَّةُ وَاَلْمَذَاهِبُ اَلْمُخْتَلِفَةُ، فَانْصَرَفَ كَثِيْرٌ مِنْ اَلْمُتعلِّمينَ عَنْ تَعَلُّمِ النَّحْوِ ومُتابعةِ دُرُوسِهِ. فانّ لَنَا أَنْ نُعِيْدَهُمْ إليه.!!

وهل كان الغرضُ مِن وضعِ النّحو العربيّ تعليميًا للمبتدئينَ،أم وضعه النّحاةُ للعلماءِ والمتخصّصينَ أولًا ثُمّ تبعه النّحو التّعليميّ؟

والإجابة عن هذا السّؤال توضّحها آراء الباحثين الذين يُرَجّحُون أنّ التّصنيفَ النّحويّ لدى العربِ اتّسم منذُ البدايةِ بطابعين:

أولّهما: طابعٌ تعليميّ غرضُه الأساسيّ أنْ يعرضَ مسائلَ النّحوِ على المبتدئينَ والمتعلّمينَ لكي يطبّقوها في نُطقِهِم إنْ تكلّموا، وفي كتابتِهم إنْ كتبوا خطبةً أو رسالةً.

ثانيهُما: طابعٌ نظريّ مجرّد تظهرُ مِن خلاله فلسفةُ النّحو ومحاججاتُ النّحاةِ، وقد وُضِع للمتخصّصينَ في علوم الشّريعة واللّغةِ وغير ذلك.[1]

يستطيعُ النّاظرُ المتفحّصُ لكتب النّحاة الأوائلِ أنْ يجزمَ بثقةٍ أنّ مؤلفاتِهم احتوت على النّمطينِ معًا، و

[1] عبادة، محمد، النحو التعليمي في التراث العربي، ص10

لننظر في المصدر الأول في النّحوِ العربيّ ألا وهوُ الكتابُ لسيبويهِ، فسنجده قد سلك سيبويه في عرض مادته النحوية مسلكينِ :

المسلك الوظيفيّ التّعليميّ أوِ الإرشاديّ، حيثُ يقومُ بعرض الوجوهِ الصّحيحة في النّحو العربيّ كما سمعها مِن أهل اللّغة الفُصَحاءِ، توجيهًا للقارئِ كي يَنحُوَ نحوَهم في أساليبِ البيانِ والتعبيرِ، سواء كان نُطقًا أم كتابةً.

المسلك النّظريّ البحثيّ، حيث كان يقوم بالكشف عن أساليبِ العربِ الفصحاءِ و أَقْيسةِ النّحاةِ، مِن أجل وضع قواعدَ نحويّةٍ ثابتةٍ يسترشدُ بها الدّارسونَ في شتّى العلوم الإسلامية، ويدخلُ في هذا الصّنفِ المحاوراتُ بينَ سيبويهِ وأستاذِه الخليلِ، فـ"الكتاب" يمتلئُ طولًا وعَرْضًا بأسئلةٍ يوجّهُها سيبويهِ إلى أستاذِه مستفسرًا، وبردودِ الخليل وتعليقاته.

وتأكيدا لما سبق فيما يتعلّقُ باحتواء "الكتاب" على النّحو التّعليميّ الوظيفيّ إلى جانب النّحو النّظريّ المعياريّ ، فإنّ سيبويهِ يفرّقُ بين ما هو ضروريّ في صناعة النّحو للمبتدئ ، وبين ما يفهمُه العالم المدقّق، وقد عُنِيَ في الكتاب بالجانبينِ التّعليميّ التّطبيقيّ والنّظريّ ، وهذا ما أشار إليه بعضُ الباحثينَ المعاصرينَ.

وثَمّةَ مصنفاتٌ أخرى في النّحو شملت شيئا مِن النّحو التّعليميّ، وقد صرّح بذلك ابنُ السّراج ت 316هـ في مقدمة كتابه "الأصول": "ولما كنتُ لم أعملْ هذا الكتابَ للعالِم دون المتعلّم احتجْتُ إلى أنْ أذكرَ ما يقربُ على المتعلّم"، [1] وإذا تصفّحنا الكتاب لمحنا هذا الضربَ من النّحو: "ومِمّا يقربُ على المتعلّم أن يُقالَ"،[2]"ورتّبْتُ أنواعه وصنوفه على مراتبها بأخصرِ ما أمكنَ مِن القولِ وأبينِه ليَسبقَ إلى القلوب فهمُه،

[1] ابن السرّاج،الأصول في النحو،ج: 1، 37

[2] المصدر نفسه،ج: 1، 38

ويسهلَ على متعلميه حفظُه"،[1] "فإنّما هي شيءٌ قاسه النّحويونَ ليُدرّبَ به المتعلّمونَ"،[2] " وذكرْنا في كلّ بابٍ من المسائلِ مقدارًا كافيًا فيه دُربةٌ للمتعلّم ودرسٌ للعالم "[3].

وفي هذه النّقول ما يؤكّدُ حقيقة وجود النّحو التّعليميّ في مصنّفاتِ القدماءِ، وهي "سماتٌ واضحةٌ للتيسير تكشف عن نوازعَ مبكرةٍ عند النحاة الأوائل للفصل أيضا في الدّرس النّحوي بين ما هو ضروريّ للشّادي المبتدئ وبين ما يُطيقُه العالم" [4].

ولعلّه من الجدير بالذّكر الإشارة إلى الفرق بين علم النّحو و تعليمه، و هو ما تنبّه إليه ابن الحاجب غلى ذلك فجاء كثير من مؤلّفاته خدمة للمنهج التّعليمي الذي يقوم على : تكييف النّحو و الصّرف مع المقاييس التي تَقْتَضِيْهَا اَلتَّرْبِيَةُ اَلْحَدِيْثَةُ؛ عَنْ طَرِيْقِ تَبْسِيْطِ اَلصُّوْرَةِ اَلَّتِي تُعْرَضُ فِيْهَا اَلْقَوَاعِدُ عَلَى اَلْمُتَعَلِّمِيْنَ. فَعَلَى هَذَا، يَنْحَصِرُ اَلتَّيْسِيْرُ فِي كَيْفِيَّةِ تَعْلِيْمِ اَلنَّحْوِ، لَا فِي اَلنَّحْوِ ذَاتِهِ. وَهَذَا هُوَ اَلْمَفْهُوْمُ اَلإِجْرَائِيُّ اَلَّذِي يَدْعُو اَلدَّارِسِيْنَ إِلَى ضَرُوْرَةِ اَلتَّمْيِيْزِ بَيْنَ نَوْعَيْنِ مِنْ اَلنَّحْوِ: اَلنَّحْوِ اَلعِلْمِيِّ ، وَاَلنَّحْوِ التّعليمي.

فالنَّحوُ العِلْمِيُّ التَّحليليُّ: يَقُوْمُ عَلَى نَظَرِيَّةٍ لُغَوِيَّةٍ، تَنْشُدُ اَلدِّقَةَ فِي اَلْوَصْفِ و التفسير، وَتَتَّخِذُ لتحقيق هَذَا اَلْهَدَفِ أَدَقَّ اَلْمَنَاهِجِ. فَهُوَ نَحْوٌ تَخَصُّصِيٌّ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَمِيقًا مُجَرَّدًا ، يُدْرَسُ لِذَاتِهِ، وَتِلْكَ طَبِيعَتُهُ. وَهَذَا اَلْمُسْتَوَى مِنْ اَلنَّحْوِ يُعَدُّ نَشَاطًا قَائِمًا بذاته، أَهْدَافُهُ اَلْخَاصَّةُ بِهِ هِيَ اَلاكْتِشَافُ اَلْمُسْتَمِرُّ وَالْخَلْقُ وَالإِبْدَاعُ. وَهَذَا هُوَ اَلأَسَاسُ وَالْمُنْطَلَقُ فِي وَضْعِ نَحْوٍ تعليمي؛ تُرَاعَى فِيْهِ قوانين عِلْمِ التّدريس[5]

---

[1] المصدر نفسه،ج: 1، 56

[2] المصدر نفسه،ج: 1، 65

[3] المصدر نفسه،ج: 1، 328

[4] الطناحي، محمود، فهارس كتاب الأصول في النحو، ص5- 6

[5] ينظر: أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، لعبد الرحمن الحاج ، ص22 – 23.

أَمَّا اَلنَّحْوُ اَلتَّعْلِيمِي فَيُمَثِّلُ اَلْمُسْتَوَى اَلْوَظِيفِي النَّافِعُ لتقويم اَللِّسَانِ، وَسَلَامَةِ اَلْخِطَابِ، وَأَدَاءِ اَلْغَرَضِ، فَهُوَ يُرَكِّزُ عَلَى مَا يَحْتَاجُهُ اَلْمُتعلِّمُ، فيَخْتَارُ اَلْمَادَّةَ اَلْمُنَاسِبَةَ مِنْ مجموع مَا يُقدِّمُهُ اَلنَّحْوُ اَلْعِلْمِي، مَعَ تكييفها بطريقة مُحْكَمَة تبعا لِأَهْدَافِ التعليم و ظروف اَلْعَمَلِيَّةِ اَلتَّعْلِيْمِيَّةِ[1].

وَلَعَلَّ أَقْدَمَ تَشْخِيصٍ لِلعَلَاقَةِ اَلسَّلْبِيَّةِ بَيْنَ اَلْمَعْرِفَةِ اَلنَّظَرِيَّةِ اَلْوَاعِيَةِ بِالْقَوَاعِدِ وَالاسْتِعْمَالِ اَلْفِعْلِيِّ لَهَا فِي اَلْمُسْتَوَى المنطوق و المكتوب مِن اَللُّغَةِ هُوَ ذَلِكَ اَلَّذِي جاء فِي مُقَدِّمَةِ اِبْنِ خُلْدُوْنِ، حَيْثُ يَرَى :"أَنَّ صِنَاعَةَ اَلْعَرَبِيَّةِ – صِنَاعَةَ اَلنَّحْوِ – إِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ قوانين هَذِهِ اَلْمَلَكَةِ – اَللُّغَةِ — و مقاييسها خَاصَّةً. فَهُوَ عِلْمٌ بِكَيْفِيَّةٍ لَا نَفْسَ كَيْفِيَّةٍ. فَلَيْسَتْ نَفْسُ اَلْمَلَكَةِ، وَإِنَّمَا هِيَ بِمَثَابَةِ مَنْ يَعْرِفُ صِنَاعَةً مِنْ اَلصَّنَائِعِ عِلْمًا وَلَا يَحْكُمُهَا عَمَلاً... وَهَكَذَا، اَلْعِلْمُ بِقَوَانِيْنِ اَلإِعْرَابِ إِنَّمَا هُوَ عِلْمٌ بِكَيْفِيَّةِ اَلْعَمَلِ"[2].

ومن ثمّة، فَالنَّحْوُ ضروري فِي تعليم اَللُّغَةِ وَاِكْتِسَابِ السّليقة، وَلَكِنْ لَا كَقَوَاعِدَ نَظَرِيَّةٍ تُحْفَظُ ، وَلَكِنْ كَمُثُلٍ وأنماطٍ عمليَّةٍ تُكتسَبُ بالتَّدريبِ والمِرَانِ .

[1] ينظر: البحث اللغوي، مكتبة غريب، لمحمود فهمي حجازي، ص142- 145

[2] المقدمة ، لابن خلدون، 2 /729